



على أبواب رمضان

(008) سورة الأنفال

محاضرة في الأردن

2024-03-04

عمان

الأردن

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على نبينا الأمين وعلى آله وأصحابه أجمعين، حيّاكم الله إخواني جميعاً ببارك الله بكم.

العبادة هي أن تجعل حياتك خاضعة لمنهج الله وفي طاعة الله:

أيها الإخوة الأحباب، نحن على أبواب رمضان، ورمضان شهر العبادة، شهر من أشهر العام المتميزة في عبادة الله تعالى، هذا أصله، والعبادة في مفهومها العام هي أن يُعبد الإنسان نفسه لخالفه، نحن نقول طريق مُعبّدة يعني مُزلة، حتى تطأها الأقدام أو حتى تمشي عليها الحافلات، مُعبّدة يعني مُزلة، خاضعة، فالعبادة في الأصل هي أن يجعل الإنسان حياته خاضعة لمنهج الله، في عصور الإسلام الزاهرة فهم المسلمون العبادة على هذا النحو، فجعلوا حياتهم في منهج الله، وفق منهج الله، في طاعة الله.

في العصور المتأخرة فهم كثير من المسلمين العبادة على أنها الشعائر، والشعائر هي من أهم العبادات لكنها ليست العبادات كلها، الصلاة، والصيام، والحج، والزكاة، هذه الشعائر، التي بُني الإسلام عليها، لكن العبادة فيها صلة أرحام، العبادة فيها صدق، فيها أمانة، فيها حُب، فيها إخلاص، فيها إثار، فالعبادة شاملة لكل نشاط الإنسان، عمله عبادة، جهاده في سبيل الله عبادة، زواجه عبادة، تربية أولاده عبادة، إذا أتى زوجته عبادة، يعني إلى هذا الحد، فالعبادة هي مُجمل حياة الإنسان، بدءاً بدخوله إلى بيت الخلا، وانتهاءً بعلاقاته الدولية مع الأعداء، كلها ينبغي أن تنضبط وفق منهج الله، هذه هي العبادة.

والعبادة تشمل شئين، فهي تلك الطاعة والعبودية لله مع الحُب، فمن أطاع ولم يُحب ما عبد الله، ومن أحب ولم يُطع ما عبد الله حقاً، فالطاعة مع الحُب عبادة، يعني بالخدمة الإلزامية، أو الخدمة العامة في الجيوش كلها، الجنود يُعبدون حركتهم لمنهج الجيش تعبيد كامل، يعني الاستيقاظ له موعد مُحدّد، النظام المُنضّم له طريقة محدّدة في حركة الأيدي، الطعام له وقت مُحدّد، إذا قال الضابط للجندى مُنبطحاً، ما أن يُيم كلامه حتى يكون الجندى قد انبطح على بطنه أرضاً استجابة لأمر معلمه، وقد يكون في داخله يدعو عليه لأنّه ظلمه، لكن هو في النتيجة يُعبد نفسه لمنهج الجيوش، لكن ليست هذه العبادة الحقيقية في الإسلام، وإذا قال إنسان أنا أحبّ جداً الله تعالى لكنني لا أطيعه فيما أمر، أيضاً هذا نقص كبير في العبودية لله تعالى، فالعبودية هي ذاك المزيج من طاعة الله تعالى مع حُبّه، فهي طاعة طوعية اختيارية، ممزوجة بحبة قلبية، فإذا اجتمعت الطاعة الطوعية الاختيارية مع الحُب المبني على معرفة الله، وعلى فضل الله علينا، وما يغذونا به من نعمه وفضله، وأنه المربّي جلّ جلاله، إذا اجتمعت الطاعة مع الحُب كانت العبادة الحق لله تعالى.

أيها الكرام لكن هناك عبادات ثلاث، هناك عبادة تُسمّيها عبادة الوقت، وهناك عبادة تُسمّيها عبادة الهوية، وهناك عبادة الطرف.

من أنواع العبادات أولاً: عبادة الوقت:

عبادة الوقت، كان سيدنا عمر رضي الله عنه يقول: <>، يعني ببساطة جداً صلاة الظهر والعصر للنهار لا تُقبل بالليل، إلا أن تكون قضاءً عن نسيان أو نوم عنها، والمغرب والعشاء لليل لا تُقبل بالنهار، إلا أن تكون عن نسيان أو سهو بنوم أو نسيان، فسّ على ذلك أبعد منه بكثير، مثلاً شخص في النهار ترك عمله، وترك رزقه، وأوى إلى سجاده يُصلي النفل، وأولاده لا يجدون ما يأكلون، وقال لك: أنا أعبد الله تعالى، هذه عبادة الليل ليست عبادة النهار، فالوقت له عبادة، رمضان في نهاره عبادة الصيام، واحد شوال عبادة الإفطار، فلو أن إنساناً استيقظ في واحد شوال وقال: سأبدأ صيام السبت، نقول له: هذا صوم مُحَرّم، اليوم عبادتك أن تفتطر.

الخجّاق يققون في عرفات ينتهلون إلى الله، يدعونه، ثم ينفرون إلى مُزدلفة، في مُزدلفة النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "السكينة، السكينة"، ناموا الآن، العبادة النوم الاستراحة، تعبّد الله بأن تنام. أيام منى أيام أكل وشرب، عبادة الله في أيام منى الأكل والشرب، فهناك عبادة اسمها عبادة الوقت، هذا من فقه العبادة، أن لا يخلط الإنسان في الوقت بين عبادتين، سيدنا عمر رضي الله عنه كان يقول: "إني إن يمّث ليلى كله أضعت ديني وأضعت ربي، علاقتي بربي، وإن يمّث نهارى أضعت رغبتي".

النهار فيه عمل، إذا شخص موظف من أجل أن يُتابع المراجعين، وأثناء المُتابعة أحبَّ أن يُتم الختمة القرآنية، وأخذ زاويةً والمراجعون ينتظرون دورهم وهو يقرأ القرآن، قراءة القرآن في هذا الوقت ليست عبادة الوقت، هذا ليس وقته، إذا امرأة قصت الليل كله وهي تُناجي ربها وتُصلي القيام، ثم صلت الفجر عند الأذان ونامت، فاستيقظ أولادها إلى المدرسة في الجو البارد، ولم تُكوى ملابسهم بعد، وهم صغار، ولم تتأكد من حقائبهم أنهم أخذوا الكتب المطلوبة، ولم تودعهم بانتساف على الباب، فهي عبت الله في غير ما أقامه الله به، لو أنها أوتت إلى فراشها بعد العشاء، واستيقظت قبل الفجر بنصف ساعة، وصلت ركعتين قيام الليل، ودقات البيت، وأيقظت أولادها لكانت قامت بعبادة الوقت، فهذا الفهم للعبادة ينبغي أن يكون عند المسلمين جميعاً بأن هناك عبادة للوقت.

ثانياً عبادة الهوية:

العبادة الثانية تُسميها عبادة الهوية، من أنت؟ كل إنسان يسأل نفسه من أنا؟ أنا تاجر، عندي مال كثير، هويتي تاجر، إذاً عندي عبادة خاصة بي مهمة جداً، وهي عبادة إنفاق المال، فلا ينبغي أن أقول أنا أصلي وأصوم وأحج، وكل سنة حجة، أنت عندك عبادة خاصة، أنت أقامك الله تاجراً، الآخر أقامه الله مُعلماً، عبادته الأولى أن يُربي الأجيال، أن يُعظمهم، أن يُنمي فيهم جانب الخير، أن يُتابع واجباتهم، له عبادة خاصة، الأم لها عبادة خاصة، الأب له عبادة خاصة، في هويته غير العبادات العامة المطلوبة من الجميع، اليوم المُجاهد على الثغور في الرباط له عبادة خاصة، أن يمنع الأعداء من الدخول، من الاقتحام، من تغره، فكل إنسان في المكان الذي أقامه الله تعالى به، سواءً بشكل عام أو في وقت مُحدد، له عبادة تُسميها عبادة الهوية، من أنت؟ تعبّد الله فيما أقامك الله، فهناك أشخاص أعطاهم الله المال، هناك أشخاص أعطاهم العلم، هناك أشخاص أعطاهم المنصب، فعبادتهم من خلال هذا المنصب أو المال أو العلم، إلى آخره....

ثالثاً عبادة الظرف الذي أنت فيه:

العبادة الثالثة هي عبادة الظرف، الظرف الذي أنت فيه، هذه غير عبادة الوقت، الظرف الذي أنت فيه، في هذه اللحظة جاءك صيف إلى البيت، عبادتك الأولى إكرام الصيف، أنت الآن في ظرف عبادتك الأولى إكرام الصيف، في مجلس علم عبادتك الأولى الاستماع للحق، في ليل رمضان وليالي القدر عبادتك الأولى القيام والدعاء، فهذه عبادة اسمها عبادة الظرف، الظرف الذي وضعك الله فيه، اليوم عندنا حدث مُهم في غرة، المسلمون يُعانون ما يُعانون، ظرف هذه العبادة أن ندعوا لهم في كل صلاة، أن ندعوا لهم عقب كل صلاة، أن نظهر معهم التعاطف، والتأزر، أن لا نظهر فرحنا وهم في حزن، ثم بعد ذلك من يستطيع أن يُمدّهم بالمال يُمدّهم، من يستطيع أن يُمدّهم بدعائه يُمدّهم، كل إنسان بما يستطيع، بطعام، بشراب، بكساء، كل إنسانٍ يبحث عن مدخل أو مخرج من أجل أن يصل إليهم، هذه عبادة الظرف، نحن في ظرف خاص، له عبادة خاصة.

فعندما نفهم العبادة على أنها وقت، وهوية، وظرف، فهذا فقه العبادة، العبادات العامة معروفة، الصلاة، الصيام، الزكاة، الحج، صلة الأرحام، إلى آخره، هذه تخصّ كل المسلمين، لكن هناك عبادات مخصصة تكون لها الأولوية في حياة الأشخاص، الطالب عنده امتحان في اليوم الثاني، عبادة الظرف الآن أن يدرس، أن يُتابع دروسه، وليس أن يُهملها ويجلس مثلاً يقول أنا أعبد الله بالأذكار مثلاً، مع أنّ الأذكار مهمة جداً، لكن أنت الآن عندك غداً امتحان، فعبادتك الأولى أن تدرس لتُحقق علامات عالية في الامتحان لتكون سندا لأمتك وعونا، ثم تذكر الله بعض الوقت، تدعوه، تستغيث به، هذا مؤكد لا شك فيه، فهذه العبادات على هذا الشكل.

لا تصح حركتك في الحياة حتى تكون متوافقة مع هدفك:

الأمر الآخر أُنهيها الكرام، سأضرب مثلين مُنتزعين من الواقع، لأصيل من خلاهما إلى عبادة رمضان.

المنال الأول يقول: الإنسان أُنهيها الكرام لا تصحّ حركته في الحياة حتى يعرف هدفه، أنت الآن انزل إلى الشارع تريد أن تتحرك، إذا كنت لم تُحدّد بعد إلى أين تريد أن تذهب فلن تصح حركتك، أول شيء تُحدّد الهدف ثم تسير إليه، إذا ينزل إلى الشارع، يُحدّد الهدف، ثم يتحرك نحوه.

شخصٌ سافر إلى باريس، باريس عاصمة كبيرة، أوربية، مُترامية الأطراف، فيها المتاحف، فيها المنتزهات، فيها المتاجر، فيها كل شيء، نام في الفندق، نزل صباحاً إلى الاستقبال، قال له: إلى أين أذهب؟ كيف أذهب؟ قال له: أنت ما الذي تريده حتى أقول لك إلى أين تذهب؟ إن كنت جئت سائحاً سأدلك على المقاصف والمنتزهات، وإن جئت طالباً سأدلك على الجامعات والمدارس والمعاهد، وإن جئت تاجراً سأدلك على المعارض والمتاجر، فقل لي ما الذي قد جاء بك حتى أقول لك كيف تتحرك؟ هذه طبيعية لا تصحّ حركة الإنسان حتى يعرف هدفه.

المنال الثاني: تتمتع ذلك وهو أنّه لا يسعد حتى تأتي حركته متوافقة مع هدفه، لا يشعر بالطمأنينة الإنسان إذا كان يتحرك بخلاف هدفه، أوضح مثال على ذلك أنّ طالباً في التوجيهي، الشهادة الثانوية، عنده غداً امتحان مهم، هو علمي وعنده غداً امتحان رياضيات، أهم مادة، والمادة الأحد، وزملانه ألجوا عليه يوم السبت أن يذهب معهم في نزهة جميلة إلى مكان جميل، ماء، وخضرة، وطعام طيب نفيس، تحت إلحاجهم ذهب، هم مُستمعون هو ليس مستمتعاً، هو يشعر بكآبة، لا يُصدّق متى سيعود إلى البيت ليأوي إلى كتابه ويُراجع دروسه، ما الذي جعله غير سعيد؟ أنّ حركته لا تتوافق مع هدفه، الآن ليس وقت الثروة، الآن وقت الدراسة.

مثال آخر، عندنا في الشام في محلات لبيع السجّاد، قديمة، فيها غلّية وسُغليّة، والسجّاد مُتراكم فوق بعضه، لا يوجد مساحات كبيرة كما في بعض محلات السجّاد، سهلة، فتُجار السجّاد علمهم مُتعب جداً، فإذا كان هناك موسم، تاجر الألبسة يعرض الألبسة في خمس دقائق، ويرتبه في خمس دقائق، تاجر السجّاد يُنزل السجّاد ويفرده، ومن ثم ترتيب السجّاد يحتاج إلى ساعة كاملة، فكان يوم موسم، وباع أربعة أو خمس سجّادات، وأرباحه فيهم جيدة جداً، وقضى النهار وهو يفرد السجّاد ويطوي السجّاد، عاد إلى بيته مُنهكاً لكنه سعيد، جلس في بيته، أخذ حمام، وهو سعيد مُبتسم، مع أنه مرهق و مُتعب، لماذا؟ لأنّ الحركة اليوم حقّقت الهدف وهو الريح، في أيام الكساد جلس على باب الدكان لا يوجد بيع، يوجد قهوة وشاي وزهورات ومُتّة، طول النهار، وجلس على الطاولة يتفرج على الذاهبين والراجعين، لا يوجد شيء عنده، ورجع إلى البيت وهو مرتاح كثيراً لكن مُنقبض، تقول له زوجته: ما شأنك؟ يقول لها: لسْتُ مسروراً أبداً، لا يوجد بيع أبداً، فهو لمّا اتعب جسده سَعد لأنه حقق هدفه، لكن لمّا أراح جسده انزعج لأنه لم يُحقّق هدفه، لذلك لا تصحّ حركتك حتى تعرف هدفك، ولا تسعد حتى تأتي حركتك موافقة للهدف الذي أنت تسعى إليه.

الله خلقنا لعبادته وحده وخلقنا ليرحمنا:

لماذا خلقنا الله؟ قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56)

(سورة الذاريات)

العبادة ليست المقصودة بذاتها، يعني مثلاً لأنّ بعض الناس يسألوا: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) يعني ربنا بحاجة لعبادتنا؟ لا

{ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، أَنَّهُ قَالَ: يَا عِبَادِي، إِنِّي خَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالُمُوا، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسِكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنْتُكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنْتُكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا صَرِيَّ قَتَرُورِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا تَغْيِي قَتْنَعُونِي، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِسْكُمْ وَجَنَّتُمْ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاجِدٍ، مَا تَقَصَّ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِسْكُمْ وَجَنَّتُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاجِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ؛ مَا تَقَصَّ ذَلِكَ مَعًا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْجِلَ الْبَحْرُ، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَغْفَالُكُمْ أُخْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوقِفْكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يُلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ. وَفِي رَوَايَةٍ: إِنِّي خَرَّمْتُ عَلَى نَفْسِي الظُّلْمَ وَعَلَى عِبَادِي، فَلَا تَظَالُمُوا.

{

(صحيح مسلم)

{ إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ مُذْنِبٌ إِلَّا مَنْ عَاقَيْتُ، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، وَمَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ أَنِّي ذُو قُدْرَةٍ عَلَى الْمَغْفِرَةِ فَاسْتَغْفِرْنِي بِقُدْرَتِي، غَفَرْتُ لَهُ وَلَا أَبَالِي، وَكُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُ، فَسَلُونِي الْهُدَى أَهْدِكُمْ، وَكُلُّكُمْ قَعِيرٌ إِلَّا مَنْ أَعْتَيْتُ، فَسَلُونِي أَرْزُقْكُمْ، وَلَوْ أَنَّ حَيْكَمَ وَمَيْتَكُم، وَأُولَاكُمْ وَأُخْرَاكُمْ، وَرَطْبَكُمْ وَبَابِسْكُمْ، اجْتَمَعُوا عَلَى قَلْبِ أَتَقَى عَبْدٌ مِنْ عِبَادِي لَمْ يَزِيدُوا فِي مُلْكِي جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، وَلَوْ أَنَّ حَيْكَمَ وَمَيْتَكُم، وَأُولَاكُمْ وَأَخْرَكُمْ، وَرَطْبَكُمْ وَبَابِسْكُمْ اجْتَمَعُوا، فَسَأَلَ كُلُّ سَائِلٍ مِنْهُمْ مَا بَلَغَتْ أُمِّيَّتُهُ، وَأَعْطَيْتُ كُلَّ سَائِلٍ مَا سَأَلَ، لَمْ يَنْقُصْنِي، إِلَّا كَمَا لَوْ مَرَّ أَخْذُكُمْ عَلَى شَفَةِ الْبَحْرِ، فَعَمَسَ إِبْرَةً ثُمَّ انْتَرَعَهَا، ذَلِكَ لِأَنِّي جَوَاذٌ مَاجِدٌ وَاجِدٌ، أَفَعَلُ مَا أَسَاءُ، عَطَانِي كَلَامٌ، وَعَذَابِي كَلَامٌ ، إِذَا أَرَدْتُ شَيْئًا فَإِنَّمَا أَقُولُ لَهُ: كُنْ، فَيَكُونُ. }

(أخرجه ابن ماجه وأحمد)

فَرُنَّا لَيْسَ بِحَاجَةٍ لِعِبَادَتِنَا، لَكِنْ مَا مَعْنَى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) يَعْنِي أَنَا أَقُولُ لِابْنِي فِي الْمَدْرَسَةِ، أَنَا مَا أَرْسَلْتُكَ إِلَى الْمَدْرَسَةِ إِلَّا لِتَدْرُسَ، أَنَا الْهَدَفُ مِنْ إِرْسَالِهِ لِلْمَدْرَسَةِ هُوَ فَقَطْ الدِّرَاسَةُ؟ لَا، هُوَ أَنْ يَكُونَ عَضْوًا نَافِعًا فِي الْمَجْتَمَعِ، أَنْ يَسْعِدَ بَرُوحَةَ وَأَوْلَادِهِ، وَأَنْ يَكُونَ مُمِيزًا، وَأَنْ يُبْشِرَ إِلَيْهِ بِالْثَنَانِ، وَأَنْ يَتَفَوَّقَ، وَأَنْ يَجِدَ عَمَلًا، وَأَنْ يُوَسَّسَ بِنِيَّةٍ، أَنَا هَذِهِ أَهْدَافِي، لَكِنْ هَذِهِ لَا تَتَحَقَّقُ إِلَّا عَنْ طَرِيقٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ أَنْ يَدْرُسَ الْآنَ، فَقُلْتُ لَهُ: مَا أَرْسَلْتُكَ إِلَّا لِتَدْرُسَ، وَرَبَّنَا جَلَّ جَلَالُهُ خَلَقَنَا لِيَرْحَمَنَا، قَالَ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِلَّا مَنْ رَّجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (119)

(سورة هود)

الطريق الوحيد لسعادة الإنسان أن تكون حياته وفق منهج الله:

لَكِنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ لَنْ نَسْتَطِيعَ نَبِيلَهَا، وَلَا الدَّخُولَ إِلَيْهَا، وَلَا السَّعَادَةَ فِيهَا، إِلَّا بِطَرِيقٍ وَاحِدَةٍ، وَهِيَ أَنْ نُعَبِّدَ حَيَاتِنَا لِمَنْهَجِهِ، وَإِلَّا وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ النَّارَ، فَلِذَلِكَ (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) لِأَنَّ الطَّرِيقَ الْوَحِيدَ لِسَعَادَةِ الْإِنْسَانِ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ أَنْ يَجْعَلَ حَرَكَتَهُ وَفِي مَنْهَجِ اللَّهِ.

إِذَا رَبَّنَا جَلَّ جَلَالُهُ خَلَقَنَا لِيُسْعِدَنَا، خَلَقَنَا لِنَعْبُدَهُ فَيُسْعِدَنَا، الْآنَ عِنْدَمَا تَأْتِي حَرَكَتِي فِي الْحَيَاةِ مُخَالَفَةً لِلْهَدَفِ الَّذِي خُلِقْتُ مِنْ أَجْلِهِ هَذَا هُوَ الشَّقَاءُ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَتَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124)
(سورة طه)

لماذا الناس يشعرون بالإحباط؟ بالاكنتاب؟ بالسوداوية؟ بالقلق؟ ربما في مستقبل العمر بلحظات مُعيّنة، يشعر أنه مستغنى عن الله والعياذ بالله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ (6) أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْصَمَ (7)

(سورة العلق)

فتراه يغور ويهمد، بلحظات مُعيّنة من التقدم في العمر يبدأ القلق، القلق لأن الحركة في الحياة كانت مُناقضة للهدف واقترب اللقاء، وهو ما أعدّ له شيئاً، مثل طالب التوجيهي، الوقت يمضي والامتحان يقترب وهو لم يُعدّ، فهو يكتب كلما ازداد الوقت، فذلك المؤمن يكون في أشدّ ساعات حياته سروراً عند لقاء ربه، " **عَدَا نَلْقَى الْأَحْيَةَ مُحَمَّدًا وَصَحْبَهُ**"، لأن الهدف الذي يسعى إليه وصل إليه، كرّجّل ركب في سيارته، وذهب نزهة إلى البحر، على مشارف البحر عندما يرى البحر يُستّرّ، انتهى العناء الذي عاناه في الرحلة، واقترب موعد الوصول والاستمتاع بالبحر.
فالمؤمن عندما يقترب من لقاء الله عز وجل، يُلقى الله في قلبه سعادة، وأمن، وطمأنينة، لأنّه يَفِدُّ على الكريم جلّ جلاله، لأنّه يَفِدُّ على الله، قيل لأعرابي وهو على فراش الموت، قال: **على من تَفِدُّ؟ قالوا: على الله تعالى، قال: "الحمد لله إِنَّ الكريم إذا حاسب تَفَضَّلَ"**، الحساب عند ربنا عز وجل، الكريم يتفَضَّل على عباده، فلن يسعد الإنسان إلا عندما تكون حياته وفق منهج الله، السعادة الحقيقية، أما لذائذُ يُحقّقها، النبي صلى الله عليه وسلم قال:

{ الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ. }

(صحيح مسلم)

نحن لا نُنكر أنه يُحقّق لذائذ في الدنيا، لكن:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَأَمَّا الَّذِينَ شَعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ؕ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُوذٍ (108)

(سورة هود)

السعادة في الجنّة، الدنيا فيها لذائذ لكن فيها مُنغصات، وفيها ضيق القلب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَتَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124)
(سورة طه)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنُجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ
بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (97)

(سورة النحل)

سرّ السعادة والإنس بالله في رمضان:

فرمضان أيها الكرام ونحن على أبوابه، هو ذاك الشهر الذي نوجّه فيه طاقاتنا للهدف الذي خلّقنا من أجله، لذلك يقول لك رمضان جميل، جميل ليس بالتمر الهندي والعرقسوس، رمضان جميل لأنّ نحن في عبادة، ونحن خلّقنا للعبادة، فنحن نحقق مهمتنا في الحياة، فرينا يلقي في قلبنا السكينة، لأننا نشعر بأننا الآن نقوم بما خلّقنا من أجله، كالتّالِب الذي قَبِعَ في بيته بالجوع الحار، ولم يخرج إلى النزهة مع زملائه، وجلس بطرّوف صعبة، لكن أنتم الكتاب وحفظه وجاهز للامتحان، فيكون سروره عظيم جداً، رغم أنه أعب نفسه، فنحن في رمضان، في النهار نجوع، وفي الليل نتعب، ورمضان النوم فيه قليل، والإنسان لا يستطيع أن يترك عمله، وعنده التّزامات، وعنده صيام قد يطول في أيام الصيف، وقد يكون فيه حرارة، وقد يكون عمله مُتعب، ثم بعد الإفطار فوراً، نصف ساعة تجده في المسجد، أو في البيت على قدميه قد بدأ بقيام الليل، في وقت السّحر يستيقظ أيضاً ليغتتم هذه اللحظات المباركة.

{ تَسْتَخِرُوا؛ فَإِنَّ فِي السَّخْرِ بَرَكََةً }

(صحيح البخاري)

فهو دائماً أربعة وعشرون ساعة مع الله، مستمر في الطاعة، لمّا ترك المُباحات، يخجل من الله أن ينطلق إلى المُحرّمات، فيغض بصره، يضبط لسانه " اللهم إني صائم"، يعفو عن الناس، يُسامح، هو في هذه الحالة الروحية الآن، الآن يفعل ما خلّق من أجله، فيسعد بذلك، هذا سرّ السعادة في رمضان، سرّ الأنس بالله في رمضان، سرّ السكينة التي تنزل على قلوب الناس في رمضان.

رمضان أحببنا الكرام فرصة نوعيّة، يعني زُيّا أي واحد فينا الآن جالس، إذا فكّر بينه وبين ذاته في أقرّائه أو معارفه، يعني بعد أربعة أو خمسة ممن يعرفهم، كانوا في رمضان الماضي معه وهذا رمضان لن يقصّوه معه، هذا حال الدنيا، فلنّا يُبلّغ ربنا جلّ جلاله الإنسان رمضان جديد، فهذا من نعم الله تعالى، وتذكّره للإنسان بأنّ ربنا مدّ له في عمره عاماً جديداً، فليعلّمه بُرّاج حساباته، لعلّه يتوب إلى الله، فأنّا أدعو جميع الإخوة الكرام الحاضرين والمتابعين، أن تُصقّي ونعمل جرد حسابات قبل رمضان، يعني الآن بقي سبعة أيام لرمضان أو ثمانية أيام، في هذه الأيام الثمانية نعمل صلح مع الله، توبة، مراجعة حسابات، المشكلات المالية والعائلية العالقة، إما أن تُخلّها فوراً، أو نُجلّها ونُعلّقها إلى الرابع من شوال، لا نترك رمضان إلى الأشياء التي تستنفذ الوقت جداً، رمضان لا يسع غيره.

العمل عبادة في كل وقت إذا ابتغي به وجه الله تعالى:

هذا لا يعني أننا سنترك العمل في رمضان، العمل عبادة في كل وقت، مادام ابتغي به وجه الله ووفق منهج الله، والمسلمون ما تركوا العمل في رمضان، الغزوات الأساسية كانت في رمضان، والجهاد في رمضان، والعمل في رمضان، لكن أنا أقصد أن لا نستنفذ طاقاتنا في رمضان بأشياء يمكن تأجيلها، فلنجعل رمضان شهر عبادة خالصة لله تعالى، ونحن في هذا رمضان تحديداً عندنا همّ كبير تعلمونه جميعاً

{ مَنْ أَصْبَحَ وَهَمَّهُ الدُّنْيَا، فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ، }وَمَنْ لَمْ يَهْتَمَّ بِأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ

، وَمَنْ أَعْطَى الدَّلَّةَ مِنْ نَفْسِهِ طَائِعًا غَيْرَ مُكْرَهٍ ، فَلَيْسَ مِنَّا {

(أخرجه الطبراني)

ونحن إن شاء الله لا ننسى، ولا نألف، ولا نخون العهد إن شاء الله، لنا همّ كبير وهو همّ إخواننا في غزّة، نسأل الله أن يُفّرّج عنهم في رمضان وقبل رمضان، وفي كل وقت، وأن يُسعدهم كما أسعدنا بدخول رمضان، وما ذلك على الله بعزيز.

اليوم قرأت لأخ من غزّة على تويتر، يقول رجل في رفح يبحث عن التفسير السعدي للقرآن الكريم، إعارّة أو تمليكاً، يعني وهو في مخيمات النزوح يريد مُصحفاً مُفسّراً للقرآن الكريم! ورأيت مشاهد لأطفال مجتمعين يقرؤون القرآن في رفح، ربنا إذا أراد أن يُسعد إنساناً، طبعاً المأساة كبيرة جداً لا تُنكر ذلك، لكن يُسعده في أصعب الظروف بالصلة به، فلعلّ ربنا جلّ جلاله يجبر خاطرتنا بإخواننا في غزّة في رمضان، وأن يُدخِل إليهم من السرور ما أدخله إلى قلوبنا، وكل عام وأنتم بخير، وأنتم الخير، والحمد لله ربّ العالمين.